في اوروبا الغربية ـ الحركة الاندماجية ، ومشكلة البرجوازية اليهودية الصغيرة ابان العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر . ويمكن تلخيص هذا الفصل فيما يلي :

١) كانت اوروبا ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر تمر في مرحلتين متباينتين اجتماعيا واقتصاديا : اوروبا غربية تقف على عتبة حضارة تجارية وفيما بعد صناعية ، واوروبا شرقية ما تزال رازحة تحت أنظمة اقطاعية لا يبدأ انهيارها الا في القرن التاسع عشر .

٢) عادت اوروبا الغربية فاستقبلت اليهود مجددا في أعقاب توطيد قوة الطبقة البرجوازية المسيحية وازدياد حاجتها لطاقات مالية ومادية لتنفيذ مشاريعها التوسعية ومد سيطرتها الى بلدان آسيا وافريقيا ومد منافسة بعضها البعض . وهكذا ابتدأ اسهام اليهود في هذه العملية منذ ذلك الحين . فاندمج اليهود اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا وروحيا في البرجوازية المسيحية الاوروبية .

٣) لم تبرز الحركة الصهيونية عندما كان اليهود يتعرضون للاضطهاد فيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر ، وانما ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر مع بلوغ النظام الرأسمالي في اوروبا الغربية أعلى قمة في تطوره ـ مرحلة الامبريالية .

٤) من هنا فالحركة الصهيونية لم تكن حركة قومية تعبر عن مصالح البرجوازية اليهودية الكبيرة وتطلعاتها في ايجاد سوق وطنية حرة من كل منافسة أجنبية وتجميع شتات اليهود وتسخير طبقتهم العاملة على الاخص لخدمتها . وبذلك لكون البرجوازية اليهودية قد حلت مشكلتها عبر اندماج رأس المال اليهودي برأس المال المسيحي . وكانت الطبقة العاملة اليهودية في مرحلة جنينية لا تلعب دورا انتاجيا فعالا، الى جانب تأييد البرجوازية اليهودية لحركة الاندماج ووقوفها ضد الحركة الصهيونية .

٥) ازدياد الهجرة في اوروبا الشرقية منذ اوائل سبعينات القرن التاسع عشر واشتدادها في أعقاب أحداث ١٨٨١ في روسيا وبولونيا . وترافقت هذه الهجرة مع تصاعد مد رجعي في اوروبا الغربية ، وبروز مشكلة استيعاب المهاجرين اليهود الجدد من اوروبا الشرقية وخاصة البرجوازية الصغيرة اليهودية . ومن ثم بدء تكون طبقة بروليتارية يهودية التي اضطرت للانخراط في الانتاج الاستهلاكي الصغير لافتقارها الى تقاليد وأسس حرفية في القطاع الانتاجي . فكانت عرضة لهزات متتالية نتيجة التطورات العلمية والتكنولوجية مما أدى الى تفشي البطالة بين صفوفها ، الامر الذي أتاح للصهيونية استغلال هذه الظاهرة لخدمة أغراضها ومصالحها ، فكانت سيول المهاجرين في اوروبا الشرقية تساهم في تأجيج العداء ضد اليهود الجدد الذين اعتبروا مصدر منافسة خطيرة للبرجوازية الفرنسية والالمانية الصغيرة ، مثلا .

اما في الفصل الرابع فتطرح علاقة الحركة الصهيونية بالاستعمار وفي هذا الفصل تركز بديعة امين على النقاط التالية :

١) كان اليهود ينتمون في القرن التاسع عشر في اوروبا الغربية الى الطبقة البرجوازية الصغيرة بصورة رئيسية ، وهي طبقة غير منتجة .

٢) ان الاغلبية العظمى من يهود اوروبا الشرقيين كانوا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية من المعارضين للصهيونية ، كما يذكر دويتشر .

٣) ان فكرة توطين اليهود في فلسطين انبعثت من اقبية وزارة الخارجية البريطانية في لندن وذلك منذ نشوء ما يعرف بالمسألة الشرقية مع بروز مشكلة ملء الفراغ الناتج عن تدهور الامبراطورية العثمانية ، خاصة بعد حرب القرم ١٨٥٤ ـ ١٩٥٦ ، وبروز اهمية الهند ومصر بالنسبة الى بريطانيا ، واشتداد التنازع في الشرق الاوسط بين بريطانيا وفرنسا بوصفه مصدر ثروات اسطورية ووقوعه على الطريق الى الهند . حتى ان فكرة توطين يهود اوروبا في فلسطين تعود الى بروز قوة محمد علي ووقوف فرنسا الى جانبه ، مما اوقع الهلع في بريطانيا من تعريض خطوط المواصلات الى الهند للخطر الفرنسي . فكانت فكرة جعل فلسطين « قلعة دفاع امامية » او « مخفرا اماميا للامبراطورية البريطانية » .

ولم تقتصر مسألة ادراك اهمية فلسطين على بريطانيا وحدها ، بل عملت لهذه الفكرة وحرضت يهود اوروبا لتنفيذها دول استعمارية اخرى بدءا بالمانيا البسماركية وفرنسا نابليون الثالث وانتهاء بروسيا القيصرية .